"عن الثورة وأحوالها الحلوة والمرة"

بقلم أبو المعاطي أبو النجا

تحدث الثورة فجأة كالزلزال ، وإذا كان شعورنا بمفاجأة الزلزال يأتي من أننا لا ندرك مقدماته التى تحدث في باطن الأرض، فإن شعورنا بمفاجأة الثورة يحدث بالرغم من رؤيتنا لمقدماتها متمثله في تراكم وقائع وأحداث مثيرة للغضب والسخط، ولكننا نرى ذلك كله بعقولنا اليومية العادية التي تقيس الأشياء والأحداث بما فيها من مكاسب وخسائر مباشرة وآنيه ولكن حدوث الثورة شئ آخر، فالطاقة الهائلة التى تفجرها الثورة في الأفراد والجماعات، هذه الطاقة العظيمة لا تكون مفاجأة فقط لمن قامت الثورة ضدهم والذين كانوا كانوا يظنون أنهم يملكون كل الوسائل والأدوات لسحقها، ولكنها تكون مفاجأة أكبر وأخطر للذين قاموا بها.

فهذه طاقة عظيمة وهائلة تتحرك في كل اتجاه تبدو وكأنها تبحث عن عقل عظيم لإدارتها بما يناسب ما تبتعثه من آمال، وما يمكن أن تحققه من إنجازات طال انتظارها!

قد لا يكتشف الثوار في لحظات الثورة الأولي أن هذا العقل العظيم كان موجودا، وأنه كان يعمل في عقولهم جميعها دون أن ينتظر إذنا من أحد منهم، إنه العقل الجمعي الذى يعمل حين تسقط الحدود الوهمية بين عقول الأفراد والجماعات، حيث ينكشف امام الأبصار والبصائر ما هو مشترك من أهداف بين هذه العقول، وحيث يتلاشى ماهو وقتي ومرحلي من فروق واختلافات، ربما حين انفجرت ثورة ٢٥ يناير لم يكن الشباب الذين قاموا بها يفكرون بأكثر من أن يفعلوا شيئا أقوى مما كانوا يفعلون في كل مرة، وأن هذا الشئ في هذا التوقيت قد يكون له أثر أبلغ، ولكن هل كانوا يتصورون أن الأخوان المسلمين الذين أعلنوا – عدا حفنة من شبابهم – عدم مشاركتهم في تلك المظاهرات، وأن أحزاب المعارضة التى لا تقدم ولا تؤخر والتى تحفَظ بعضها سلفاً على الاشتراك في هذه المظاهرات، سوف ينضمون إليهم بهذه القوة وبهذه الكثافة، وفي هذا التوقيت ؟! هل كانت الطلائع من شباب مصر الذين قاموا بهذه الثورة يدركون على نحو قطعي أن الشعب المصري الذى ألف الصبر والسكون والكمون من هول ما مر به يمكن أن ينتفض وأن يشارك بكل هذا العنفوان في كل المدن وفي كل البلاد؟!

أم أنه العقل الجمعي العظيم الذى لا ينتظر إذنا من أحد لكي يقوم بدوره في إدارة تلك الطاقة العظيمة هو الذى أبصر في لحظة تشبه الإلهام الهدف المشترك بين الجميع وهو إسقاط ذلك النظام الذى لا يمكن إسقاطه إلا بطاقة عظيمة مثل هذه الطاقة التى فجرتها الثورة أو فجرت هى الثورة؟!

أين ذهب ذلك العقل العظيم الذى أنجز معجزه الثورة وتركنا إلى ما وصلنا إليه الآن من حالة تهدد بالتمزق والتشرزم؟!

لا نريد أن نغرق في التفاصيل، ربما كانت البداية في فتنة نتيجة استفتاء ١٩ مارس الذى ربما كان المقصود به أساسا أن تقدم القوات المسلحة التى انتهت إليها المسئولية خريطة طريق للفترة الانتقالية تدل على أنها لا تريد شيئا أكثر من أن تسلم الأمانة إلى أهلها في نهاية تلك الفترة!

هذه النتيجة هي التى مزقت الطاقة الواحدة العظيمة التى فجرتها الثورة والعقل العظيم الواحد الذى أدارها بتلقائية واقتدار!

لقد بدا لطائفة من قوى الثورة من الذين لم يشاركوا فيها في البداية – عدا نفر من شبابهم – وهم الأخوان المسلمون – أنهم أملها ما دامت الانتخابات ستكون أولا كما أظهرت نتيجة الاستفتاء؟! لأنهم الأكثر تنظيما، والأكثر خبرة والأقدم أتصالا بالناس الذين سيدلون بأصواتهم في الانتخابات!

وأنضم إلى الأخوان في هذا الموقف التيارات الدينية المتصلة بالناس من قديم من السلفيين والجماعة الإسلامية والجهاديين، في الوقت ذاته بدا للشباب الجديد الذى كان له فضل المبادرة بالثورة بالرغم من تنوع انتماءاته بين الليبراليين واليساريين أنهم أصلها والأحق بها فالآخرون لم ينجحوا خلال تاريخهم الطويل في العمل السياسي أو الدعوى سواء أثناء تحالفهم مع السلطة أو أسرهم في سجونها في أن يحققوا الأنجاز الذى كان هؤلاء الشباب هم طلائع إنجازه، ولكنهم مع ذلك ، ليسوا على يقين من أن تجربة الانتخابات التى لم تكن لهم بها سابقة علاقة يمكن أن تعطيهم مثل هذا الحق لو جاءت هى أولا كما تقول نتيجة الاستفتاء، من هنا كانت بداية الانقسام الخطير في قوى الثورة، وهو الانقسام الذى يربك بالضرورة موقف المجلس الأعلى للقوات المسلحة من قوى الثورة

فكيف يترجم إلى لغة الواقع ماتريده هذه القوى على الأقل في المرحلة الانتقالية وهى على هذه الدرجة من الاختلاف والتمزق؟! وهل يكون له أزاء هذا الانقسام دور القاضي أم دور الشريك؟ وكيف يكون شريكا لمتنازعين؟! في لحظات لا تنسي، كان يبدو أن العقل العظيم الذى تواري عن دوره خلف سحب الاختلاف العقيم يظهر فجأة في سلوك عناصر من قوى شباب الثورة من ناحية هى ترفض ما يهدد به البعض من سلوكيات ضارة بمصالح المجتمع مثل غلق مجمع التحرير أو تعطيل خط المترو أو قناة السويس كما أنها من ناحية أخرى تستلهم روح غاندى العظيم فتأخذ من أسلوب الامتناع عن الطعام وسيلة للضغط الحضارى والإنساني على المجلس الأعلي للقوات المسلحة لإنجاز ما تراه تباطؤا منه في الوفاء بمطالب هي من حقوق شهداء الثورة، ويؤدى هذا الأسلوب المتحضر في الضغط إلى استجابة متحضره من المجلس فيذهب اللواء محمد العصار بنفسه إلى ميدان التحرير منفردا وفي حراسة من الثوار أنفسهم ليقابل المضربين عن الطعام وينـاقش مطالبهم!

ولكن هل تكفي مثل هذه اللحظات من إشراق العقل الجمعي الذى طالت غيبته لمواجهة محنة الانقسام الذى يهدد الثورة في مقتل؟!

أم أنه من الحتمي استعادة هذا العقل العظيم ليقود الثورة في المرحلة الانتقالية بمثل الطريقة التى قاد بها الثورة في المرحلة الأولي حين بدأ أن وحدة الهدف هي البوصلة التى توجه هذا العقل وتجعله قادرا على تحقيق المعجزة.

الأهداف الصغيرة والخاصة التى يرى بعض الفرقاء من قوى الثورة أنها أصبحت في متنازل اليد هى التى أطفأت أنوار ذلك العقل العظيم الذى قاد الثورة في أخطر مراحلها لتحقق أعظم انتصاراتها حيث تجمعت قواها حول هدف واحدهو إسقاط النظام، والآن لدينا أهداف مرحلية لا تختلف حولها أى من قوى الثورة، وهى لم تتحقق بعد هل يختلف الأخوان المسلمون والتيارات القريبة منهم مع شباب الثورة حول العدالة الاجتماعية أو حول سيادة دولة القانون وتحقيق الأمن؟

هل يختلف أحد حول حقوق الإنسان وحقوق المواطنة هل يختلف أحد حول حرية العقيدة وحرية الفكر للجميع؟ نعلم أن هناك أمورا كثيرة لا يزال حولها خلاف حول تعارضات بين حدود للعدالة وحدود للحرية، حدود للفردية وحدود للمجتمع ولكنها مسائل سوف يبقي الجدل حولها ممتدا في العالم وعندنا.